لست ادري فيما اذا كنت مجنونا ... لكن الفاشيين يقولون انني كذلك .

كنت اشعر بدوار رهيب يكاد يفجر رأسي ... اشعر ان الكرة الارضية تدور بي بسرعة هائلة لا تكاد تصدق .

ثم انني انقيأ كيفما اتفق ... اشعر كذلك ان القيء يدور معي ... الفاشي يقف فوق راسي يتمتم بكلمات لا افقه منها شيئا ... ثم انني لا ارى منه الا شبحا ... اسمع تمتماته حينا وصراخه حينا آخر ... ومع ذلك لا افقه شيئا ... بدا الصراخ يخفت رويدا رويدا .

وبدات سرعة دوران الارض تزداد ... وبدا شبح الفاشي الواقف فوق راسي يضمحل رويدا رويدا ... ثم بدات اضمحل تدريجيا الى ان اصبحت نقطة ... ثم اختفت هذه النقطة .

★ ★ ★

افقت من فيبوتي التي لا ادري كم مضى عليها من الوقت ... وجدت مجموعة من الفاشيين تحيط بي وكنت ممددا على ارض ملجا .

اقترب احد الفاشيين وركلني برجله على راسي سائلا :

— كم قتلت من « القوات اللبنانية » ؟

— لم اقتل احدا .

— الى اي تنظيم مخرب تنتمي ، الى الجبهة الشعبية ، ام الى فتح ، ام الى الديمقراطية ؟ ام .... ؟ ....

— لا انتمي الى اي تنظيم .

— هل تدربت على السلاح ؟

— لا .

ثم اعطاني بندقية « كلاشن » وطلب مني أن اسحب الاقسام .

اخذت البندقية وبدلا من ان اسحب اقسامها الى الخلف دفعتها الى الامام .

وهنا انهالوا عليّ ضربا وركلا ... ثم علقوني بسقف الملجا بعد ان نزعوا ملابسي وانهالوا علي ضربا « بالكرابيج » التي مزقت الكثير من انحاء جسمي ... ازدادت دهشتهم عندما لم اصرخ او اطلب منهم الرحمة ثم اخذوا يطفئون سجائرهم في انحاء متفرقة من جسمي ... لكن سرعان ما اعتراهم الذهول كوني لم اصرخ ...

فقال احدهم : الم اقل لكم انه مجنون ؟ انزلوه . فانزلوني ...

كنت اشعر بآلام مبرحة من جراء الضرب والحرق ... لكنني لا ادري لماذا لم اصرخ ؟ هل سبب ذلك « ليتر العرق » الذي فتحوا فمي وصبوه في جوفي قبل اعمائي ؟ ام ان سبب ذلك هو السيجارة الغليظة التي دخنت منها مرغما ؟ ام هي الابرة التي « زرقوني » بها ؟

عندما فتحوا فمي وصبوا فيه زجاجة « العرق » شعرت بنار تحرق حلقي ... ثم بعدها مباشرة شعرت ان الارض تدور بي .

★ ★ ★

دخل احد الفاشيين وعصب عيني ثم جرني خارجا ووضعني في صندوق سيارة ثم اخذوني الى محلة المسلخ حيث انتزعوا العصابة عن عيني واوقفوني ملاصقا لجدار تهدم نصفه ، سحب احدهم اقسام بندقيته ثم صوب فوهة البندقية نحوي ... كنت انتظر الموت ينطلق من فوهتها لكن احساسي كان متبلدا كانني مخدر ...

ظل مصوبا البندقية نحوي وبقي الآخرون يلاحظون آثار هذه اللحظة على ملامحي ... اعتقد انهم لم يلاحظوا حلما على وجهي كما هو المفترض ... وبدلا من الهلع كنت كانني في منوم ... احلم ... يا الهي هل احلم وانا اواجه الموت ؟ ... بماذا كنت احلم ؟ لقد رايت امي واخوتي الثلاثة ...

عند سقوط مخيم تل الزعتر ، قالوا لنا : التجمع عند جامع المخيم كي ينقلنا الصليب الاحمر الدولي وقوات جامعة الدول العربية الى المنطقة الغربية من بيروت ... ذهب ابي وامي واخوتي الصغار واخوتي الكبار الى الجامع وهناك وجدنا جماهير غفيرة معظمهم من النساء والاطفال ولكن دون فائدة .

وفجاة ظهر الفاشيون من حزبي الكتائب والاحرار مدججين بالسلاح واحاطوا بنا ثم بدات طلقات الاسلحة « الاوتوماتيكية » تنهال علينا ...

نظرت الى اخي موسى ابن السادسة عشرة فوجدته ممددا على الارض ينخبط بدمه ، وقد بدات الدماء الغزيرة تسيل من صدغه .

اما امي فقد اصابت راسها رصاصة طرحتها ارضا دون حراك وبداها متشابكتان حول جسم اخي احمد البالغ من العمر ثلاث سنوات . لكن احمد استطاع ان ينتزع نفسه من بين ذراعي امي ويزحف قليلا ثم عاد الى امي وقبلها في راسها ... عندها جذبته من يده وجلسنا مع اخوتي الصغار بين الناس .

ساقنا الفاشيون الى مقبرة مخيم تل الزعتر قرب حديد ابو علي بادي ... هناك تلقانا فاشيون جدد وبدأوا باطلاق النار على الجماهير ... قتل اخي محمد الذي يبلغ العشرين من العمر برصاصة في راسه ... اما اخي علي فقد سقط ارضا والدماء تنزف من صدره فمرروا مجنزرة فوق جثته حيث سحقته سحقا فاختلط اللحم بجنزير الحديد ولم يبق منه شيئا .

احاط بنا الفاشيون ووضعوا اربعة وثلاثين ذكرا من الرجال والاولاد في سيارة « بيك اب » وانطلقوا بنا الى الاشرفية حيث خلفنا وراءنا مجازر تقترف بحق النساء والاطفال .

★ ★ ★

كنت احلم واري امامي هذا الشريط الدامي من المناظر ولم اكن اعي ما يدور حولي ...

افقت على اطلاق النار نحوي لكن الرصاصات لم تصب جسمي .

التفت احد الفاشيين الى الآخرين وقال لهم : الم اقل لكم انه مجنون ، لم يرف له جفن ونحن نصوب البندقية نحوه .

★ ★ ★

بعد سنة اشهر من التعذيب والاختبارات اكتشف الفاشيون انني مجنون فافرجوا عني مع سبع اطفال ذاقوا منهم مر العذاب . لكن ابي لم يفرجوا عنه وان اراه مرة اخرى ...

■

تل الزعتر...

جمرات لاتطفئ اذا بقي للارض هيكل

— ١ —

ها نحن ابدا او ننتهي ، نفتح بوابة جراحنا ، ونطل على السابق من الجريمة من خلال حاضر مجرم . نقف امام ثقب في الذاكرة لم يندمل بعد . ونتحرك امام رسوم الحياة بصخب مجنون ، نقول الكلمات ، نقولنا المعاني. ثم نتراجع مقهوريـــن بدءا مـــن التراث ووصولا الى حاضر لم نمسك بعد به . نحن الانسان لسنا سوى كمية من القصدير ، او جزيرة اسماك نضب الماء من خياشيمها ، صار للممر رائحة المزلة — النفي — القضبان. لكننا نعيش مرحلة افتراض العيش لذا لا زلنا نقاوم موتنا امام مجازر الانظمة . او تحت قذائف الحضارات .

— ٢ —

ها اذا مائل الان امام لوحات وافرة المضامين . لكنني احس بشلل اصابعي امام هذه المشاهدات المتوازية في الموت والحياة . انني لا استطيع الصراخ . لا استطيع جمع العناصر ، ربما لاننا اصبحنا كتلة رائعة من الماضي او تسرب الوقت من امانينا التي وظفنا انفسنا لاجلها . قد نقول سلاما للحياة او سلاما للندم . قد نقول ...

— لكن لا خيار لنا حين تصير الدماء مهجورة الى هذا الحد .

— لا خيار ساعة تكسر العصافير اجنحتها بمناقيرها وتسلم نفسها للقاتل .

— ٣ —

احيانا اتساءل عن دهشة لم افهمها . لكنني ارتد الى مرايا الساحات واقف كصليب مكسر اشخص ببقايا الاوائي الانسانية . اعترف بانني كحاضر تجاوزني النسيان وارقص مع الملعنة تحت ظل ضلوع . اقول لا حاجة بنا للبكاء ، لا حاجة بنا .. هو الذبول سيد الاماكن . ونحن موثقين برباط ماني العقد . ندور دائما حول موتنا لكننا . ندمر.. ندمر الحانات والاكواخ، لاجل نكتة الآباء الملوك .

— ٤ —

آه ... ماذا ترانا نقول ، كم بقي من المسافات لنلامس وجوهنا . او نوسد الرماد .

آه ... ماذا نقول للزعتر السري حين نهاجر على طول هذا العالم العربي ونرجع بدون اعناقنا . هل ادفع ثمن الكلمات . الآن اقسم بدم الخبز من ان عالمنا باص تتنقل فيه الانظمة ، ونحن الجسر الذي يحمل جنازتين ، الاولى صمتنا . والثانية الانتظار . فمتى يطوف السري من الدم على موائد الاباطرة الخونة . متى نقتلع من اعماقنا رهبة موتنا ونواجه الحياة بقساوتها . حينها نهب صيحة بقظتنا . او يقظة صيحتنا . وتطلع الشواهد منحنية امام خرابنا وسط هذا المحجر « مع تسكين الجيم » الانساني لهواء الارض .

— ٥ —

نعالوا نتذكر ان للذاكرة طعمنا اليومي .

نعالوا نحمل بقايا انكساراتنا او مزابل اجسامنا لعلنا حينها نهتز او تهز غيمة ذعرنا الوهمي ...

اعترف ان زماننا . زمان القتلة . ونعترف ان عمرنا تجاوز القادم من العمر ... لكن من ينكر ان شعبا ابيد في عاصمة فقره والزعتر لا زال ينبت كل عام اغصانا دموية الخضرة .

هوذا الفراغ فراغنا . لكن هل تعلمنا من الاعواد المنصوبة في الساحات . ان الخناجر غير قابلة للنماس . وان دمنا اكيد النزيف .

— ٦ —

سلاما للزعتر ساعة نحاور موتانا الاحياء .

سلاما لموتنا الذي احيا الشهداء .

سلاما .....

حسين نصرالله

ياتل الزعتر

بقلم: صَالح زهر الدين

يـــا تـــل الزعترْ ...
خالـدة اغنية صمودك
بـاقية اغنية الموت مسجلة
فوق جبين الطفل الاسمر
يـــا تل الزعتر
بـاقية اغنية الموت مسجلة
في ذاكـرة الشعب الاكبر
تـدوي اصوات حناجـره
يـا تاريخ الموت الاحمر
يـا تاريخ النصر الاكبر
يـا تاريخ المجـد الاكبر
سجّل في صفحـات خلـودك
اسطورة شعب لا يقهر
سجل في صفحات خلـودك
رجل الثورة ، طفل الزعتر
سجل في صفحات خلـودك
بـاق ابـدا ... تـل الزعتر .
آب المـاضي ، اثمرخ زعتـر
اصبح للـزعتر رائحـة
تشبه طعم المـــوت
وطعم الـــدم
وطعم النصـر
وطعم فلسـطين
الآتي ... مـن تل الزعتر .
آب المـاضي ، انبت زعتر
وزّع في الارجـاء بذورا
نبتت ... تشبه تل الزعتر
اصبح كل العـالم ... زعتر
والزعتر ... من كل العـالم
اصبح في موطننا ... اكبر .
سالوني : مـا اسمك ؟
قلت لهـم : زعتر
قـالوا : ومتى كانت اسمـاء البشر
باسمـاء نبات ؟
ولمـاذا باسم الزعتر بالـذات ؟
قلت لهم : مـن زمن العشق ،
ومن زمـن الاستشهـاد :
سمّتي ثـوار العـالم
بـاسم الزعتر
في زمـن الزعتر ...
كم مـن بشر حملت اسمـاء نبات
بل وبـاسم الزعتر بالـذات
في زمـن الزعتر ايضـا
كـم مـن بشر
كانت افضل منهـم : حيوانـات .
لا ... لن ينسى تل الزعتر
وعلى صدر المجـد سيبقى
في ذاكـرة الشعب سيبقى
نجمة ذكرى ... تل الزعتر
لا ... لن ينسى تـل الزعتر
لـن ينسى شعب لا يقهـر
لـن ينسى تـاريخ قضية
وسيبقى ابـد الابدية
بـاق ابدا تـل الزعتر
بـاق بـاق ابـدا اكبر .

■